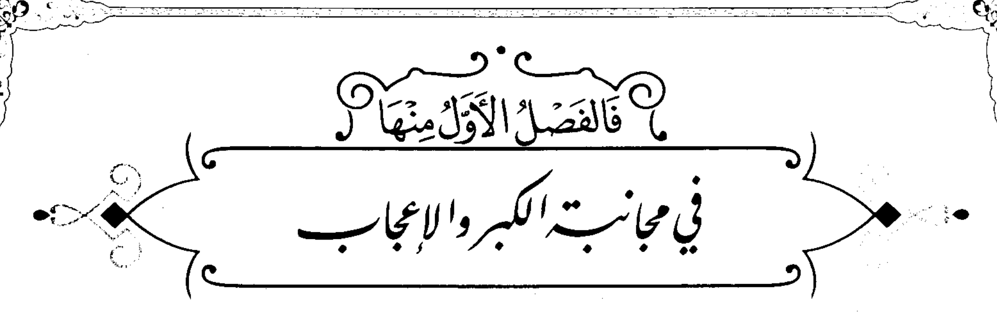


لأنَّهما يسلبان الفضائلَ ، ويكسبان الرذائلَ ، وليس لمَن استوليَا عليه إصغاءٌ لنصح ، ولا قبولٌ لتأديب ؛ لأنَّ الكبر يكون بالمنزلة ، والعُجبَ يكون بالفضيلة ؛ فالمتكبِّر يجلُّ نفسَه عن رتبة المتعلِّمين ، والمُعجَب يستكثر فضلَه عن استزادة المتأدِّبين ؛ فلذلك وجب تقديم القول فيهما ، بإبانة ما يكسبانه من ذمٍّ ، ويوجبانه من لَوم[1] ، فنقول :

أمّا الكِبرُ : فيكسب المقتَ ، ويُلهي عن التألُّف[2] ، ويُوغر صدورَ الإخوان ، وحسبك بذلك سوءاً عن استقصاء ذمِّه ؛ ولذلك قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم لعمِّه العباس رضي الله تعالىٰ عنه : « أنهاكَ عنِ الشِّرْكِ باللهِ والكِبْرِ ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ يحتجِبُ منهما »[3] .

وقال أردشير بن بابك : (ما الكبرُ إلا فضلُ حُمقٍ ، لم يدرِ صاحبُه أين يذهب به ، فصرفه إلى الكبر)[4] ؛ وما أشبه ما قال بالحقِّ !!

حُكِي : أن مطرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير نظر إلى المهلَّب بن أبي صُفْرة وعليه حُلَّةٌ يسحبها ، ويمشي الخُيَلاء ، فقال له : (يا عبدَ الله ؛ ما هـٰذه المِشية التي يُبغضها اللهُ ورسولُه ؟) فقال المهلَّب : أَوَما تعرفُني ؟ قال : (بلىٰ أعرفك ؛ أوّلُك : نطفةٌ مَذِرةٌ ، وآخرُك : جِيفةٌ قذِرَةٌ ، وحشوُك فيما بين ذلك : بولٌ وعَذِرةٌ)[5] .

---

(١) لأنهما كقطَّاع الطريق بينه وبين حسن الخلق ، فوجب استئصالهما ؛ ليأمن الطريق .
(٢) في (أ) : (ويلهي عن التأله) ، وفي (ج) : (ويثير الحقد) .
(٣) رواه النسائي في « السنن الكبرىٰ » (١٠٦٠٠) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦٢/ ٢٨٧) من وصية سيدنا نوح عليه السلام لابنه ، ويحتجب منهما ؛ أي : لا يغفر لصاحبهما .
(٤) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص٤٤٤) ، و« نهاية الأرب » (٣/ ٣٧١) .
(٥) أورده في « محاضرات الأدباء » (١/ ٥٣٧) .

فأخذ ابن عون هٰذا الكلام فنظمه شعراً ، فقال[1] : [من المنسرح]

عجِبتُ مِن مُعجَبٍ بصورتِهِ وكان بالأمسِ نُطْفةً مَذِرَهْ
وفي غدٍ بعدَ حُسنِ صورتِهِ يصيرُ في اللَّحدِ جِيفةً قَذِرَهْ
وَهْوَ علىٰ تِيْهِهِ ونَخوتِهِ ما بينَ ثَوبَيهِ يحمِلُ العَذِرَهْ

وقال آخر[2] : [من الطويل]

فتىً كان عَذْبَ الرُّوحِ لا مِن غَضاضةٍ ولٰكنَّ كِبْراً أنْ يُقالَ بهِ كِبْرُ

وقد كان المهلَّب أفضلَ من أن يخدَعَ نفسَه بهٰذا الجواب ، ولٰكنها **زَلّةٌ من زلات الاسترسال** ، وخطيئةٌ من خطايا الإدلال .

فأمّا الحُمقُ الصريح ، والجهلُ القبيح . . فهو ما حُكي عن نافع بن جبير بن مطعم : أنه جلس في حلقة العلاء بن عبد الرحمٰن الحُرَقيّ وهو يقرىء الناس ، فلمَّا فرغ . . قال : (**أتدرون لمَ جلستُ إليكم ؟** قالوا : جلستَ لتسمعَ ، قال : **لا ؛ لٰكنِّي أردتُ أن أتواضعَ لله بالجلوس إليكم**)[3] ؛ فهل يُرجىٰ من مثل هٰذا فضلٌ ، أو ينفعُ فيه عذلٌ ؟!

وقد قال ابن المعتز : (**لمَّا عرف أهلُ النقص حالَهم عند ذوي الكمال . . استعانُوا بالكِبْر** ؛ ليعظم صغيراً ، ويرفع حقيراً ، وليس بفاعل)[4] .

وأمّا الإعجابُ : فيُخفي المحاسنَ ، ويُظهر المساوِىءَ ، ويكسب المذامَّ ، ويصدُّ عن الفضائل .

وقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **إنَّ العُجْبَ لَيأكُلُ الحسَناتِ كما تأكُلُ النارُ الحَطَبَ** »[5] .

---

(١) روى الأبيات في « يتيمة الدهر » (٣/ ١٤٣) لأبي محمد عبد الله بن محمد البافيّ الخوارزميّ .
(٢) البيت زيادة من (ج) ، وهو لأبي تمام في « ديوانه » (٤/ ٨٢) .
(٣) رواه ابن سعد في « الطبقات الكبير » (٧/ ٢٠٥) ، وابن قتيبة في « المعارف » (ص٢٨٥) .
(٤) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص٤٤٥) ، و« نهاية الأرب » (٣/ ٣٧١) .
(٥) أورده في « ربيع الأبرار » (٤/ ٣٢٠) ، و« محاضرات الأدباء » (١/ ٥٣٢) .

وقال علي بن أبي طالب عليه السلام : (**الإعجابُ ضدُّ الصواب ، وآفةُ الألباب**)[1] .

وقال بُزْرُجُمِهْرَ : (**النعمةُ التي لا يُحسَد صاحبُها عليها : التواضعُ ، والبلاءُ الذي لا يُرحَم منه صاحبُه : العُجبُ**)[2] .

وقال بعض الحكماء : (**عُجْبُ المرء بنفسه أحدُ حُسَّاد عقله**)[3] .

وليس لما يكسبه الكبرُ من المقت حدٌّ ، ولا لما ينتهي إليه العُجبُ من الجهل غايةٌ ؛ حتىٰ إنه لَيطمس من المحاسن ما انتشر ، ويسلب من الفضائل ما اشتهر ، وناهيك بسيّئةٍ تحبط كلَّ حسنة ، وبمَذمَّةٍ تهدم كلَّ فضيلة ، مع ما تثيره من حَنَق ، وتنشئه من حقد .

وحكىٰ عمر بن حصن قال : (قيل للحجَّاج : **كيف وجدتَ منزلك بالعراق ؟** قال : خيرَ منزل ، **لو كان اللهُ بلَّغني أربعةً ، فتقرَّبتُ إليه بدمائهم** ، قيل : ومَن هم ؟

قال : **مقاتلُ** بن مِسمَع : ولي سجستان ، فأتاه الناس فأعطاهم الأموالَ ، فلمّا عُزِل . . دخل مسجد البصرة ، فبسط له الناسُ أرديتَهم ، فمشىٰ عليها وقال لرجلٍ يُماشيه : **لمثلِ هـٰذا فليعملِ العاملونَ** .

وعبيد الله بن زياد بن ظَبْيان التميميُّ : حزب أهلَ البصرة أمرٌ ، فخطب خطبةً أوجز فيها ، فنادى الناسُ من أعراض المسجد : **أكثرَ اللهُ فينا أمثالَك !! فقال : لقد كلَّفتم اللهَ شطَطاً** .

ومَعبَدُ بن زُرارة : كان ذات يومٍ جالساً في طريق ، فمرَّت به امرأةٌ فقالت :

(١) أورده في « شرح نهج البلاغة » (١٦/ ٨٤) .

(٢) أورده في « الجليس الصالح » (٤/ ٨٨) ، و« التذكرة الحمدونية » (٣/ ١٠٥) .

(٣) أورده في « ديوان المعاني » (٢/ ٩٤) ، و« التذكرة الحمدونية » (٣/ ٩٨) من قول سيدنا علي رضي الله عنه .

يا عبد الله ؛ كيف الطريقُ إلىٰ موضع كذا ؟ فقال : يا هَنْتاهْ ؛ مثلي يكونُ من عَبيد الله ؟!

وأبو سَمّال الأسديُّ : أضلَّ راحلتَه ، فالتمسها الناس فلم يجدوها ، فقال : والله ؛ لئن لم يردَّ اللهُ عليَّ راحلتي . . لا صلَّيتُ له أبداً ، فالتمسها الناس حتىٰ وجدوها ، فقالوا له : قد ردَّ اللهُ راحلتَك فصلِّ ، فقال : إنَّ يميني يمينُ مُصِرٍّ)[1] .

فانظر إلىٰ هـٰؤلاء ، كيف أفضىٰ بهم العُجب إلىٰ حُمقٍ صاروا به نَكالاً في الأوَّلين ، ومثَلاً في الآخرين .

ولو تصوَّر المُعجَب والمتكبِّر ما فُطِر عليه من جِبِلَّة ، وبُلِي به من مهنة . . لخفض جناح نفسه ، واستبدل ليناً من عُتوِّه ، وسكوناً من نُفوره .

قال الأحنف بن قيس : (عجبتُ لمَن جرىٰ في مجرى البول مرّتين ، كيف يتكبَّرُ ؟!)[2] .

وقد وصف بعض الشعراء الإنسان ، فقال[3] : [من البسيط]

يا مُظهِرَ الكبرِ إعجاباً بصُورتِهِ ... انظُرْ خَلاكَ فإنَّ النَّتْنَ تثريبُ
لو فكَّرَ الناسُ فيما في بُطُونِهِمِ ... ما استشعَرَ الكِبرَ شُبّانٌ ولا شِيْبُ
هل في ابن آدمَ مثلُ الرأس مَكرُمَةً ... وَهْوَ بخَمسٍ منَ الأقذارِ مضرُوبُ
أنفٌ يسيلُ وأُذْنٌ رِيحُها سَهِكٌ ... والعينُ مُرمَصةٌ والثغرُ ملعوبُ
يا بنَ الترابِ ومأكولَ الترابِ غداً ... أقصِرْ فإنَّكَ مأكولٌ ومشروبُ

---

(١) رواه في « عيون الأخبار » (١/٢٦٩ـ ٢٧٠) ، وراويه : (زَحْر بن حصن) ، وأورده في « التذكرة الحمدونية » (٣/١٠٧) .

(٢) رواه في « المجالسة وجواهر العلم » (٢١٦٣) ، و« شعب الإيمان » (٧٨٦١) .

(٣) أورد الأبيات في « المجالسة وجواهر العلم » (١٥٨٢) ، و« عيون الأخبار » (١/٢٧٢) ، والتثريب : اللوم ، ومضروب : مشهور ، والسهك : ريح كريهة يجدها الإنسان ممن عرق ، والأصل في معناه : صدأ الحديد وريح السمك وقبح رائحة اللحم .

وأحقُّ مَن كان للكبر مجانِباً ، وللإعجاب مبايناً . . مَن جلَّ في الدنيا قدرُه ، وعظم فيها خطَرُه ؛ لأنه قد يستقلُّ بعالي همّتِه كلَّ كثير ، ويستصغرُ معَها كلَّ كبير .

وقد قال محمد بن علي الباقرُ رضي الله عنه : (لا ينبغي للشريف أن يرىٰ شيئاً من الدنيا لنفسه خطَراً ، فيكونَ بها تائهاً)[1] .

وقال ابن السمَّاك لعيسى بن موسىٰ : (تواضُعُك في شرفِك أشرفُ لك من شرفِك)[2] .

وكان يقال : (اسمان متضادّان بمعنىً واحدٍ : التواضعُ والشرفُ)[3] .

وللكبر أسباب ، فمن أقوىٰ أسبابه : علوُّ اليد ، ونفوذُ الأمر ، وقلّةُ مخالطة الأكْفاء .

حُكِي : أن قوماً مشَوا خلفَ عليِّ بن أبي طالب عليه السلام ، فقال : (أبعدوا عنِّي خَفْقَ نعالِكم ؛ فإنَّها مَفسدةٌ لقلوب نَوْكى الرِّجال)[4] .

ومشوا خلف ابن مسعودٍ رضي الله تعالىٰ عنه ، فقال : (ارجِعُوا ؛ فإنَّها ذِلّةٌ للتابع ، وفتنةٌ للمتبوع)[5] .

وروىٰ قيس بن أبي حازم : أنَّ رجلاً أُتِي به النبيُّ صلى الله عليه وسلم ، فأصابته رِعْدةٌ ، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « هَوِّنْ عليكَ ؛ فإنَّما أنا ابنُ امرأةٍ كانَتْ تأكُلُ القَدِيدَ »[6] .

---

(١) رواه في « المجالسة وجواهر العلم » (١٣٧) ، و« تاريخ دمشق » (٤٠٨/٤١) .
(٢) أورده في « عيون الأخبار » (١/ ٢٦٧) ، ورواه في « تاريخ دمشق » (٦١/ ١٩٢) .
(٣) أورده في « الكشكول » (٢/ ٩) .
(٤) رواه الإمام أحمد في « فضائل الصحابة » (٩٢١) ، والدارمي في « مسنده » (٥٥١) .
(٥) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٦٨٣٩) .
(٦) رواه الحاكم في « المستدرك » (٢/ ٤٦٦) ، وابن ماجه (٣٣١٢) ، وأصابته رعدة ؛ أي : من دهشة القدوم عليه صلى الله عليه وسلم ؛ فإنه صلى الله عليه وسلم من رآه بديهةً . . هابه ، ومن خالطه . . أحبه عليه الصلاة والسلام .

وإنما قال ذلك صلى الله عليه وسلم حَسْماً لموادِّ الكِبر ، وقطعاً لذرائع الإعجاب ، وكسراً لأشَرِ النفس[1] ، وتذليلاً لسطوة الاستعلاء .

ومثل ذلك : ما رُوي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنَّه نادى : (الصلاةَ جامعةً) فلمَّا اجتمع الناس . . صعد المنبرَ ، فحمِدَ اللهَ ، وأثنىٰ عليه ، وصلَّىٰ علىٰ نبيِّه صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : (أيُّها الناسُ ؛ لقد رأيتُني أرعىٰ علىٰ خالاتٍ لي من بني مخزومٍ ، فيقبضنَ لي القُبْضةَ من التمر والزبيب ، فأظلُّ اليومَ ، وأيَّ يومٍ ؟!) .

فقال له عبد الرحمـٰن بن عوف : (واللهِ يا أميرَ المؤمنين ؛ ما زِدتَ علىٰ أن قصَّرتَ بنفسك) ، فقال له عمر : (ويحَكَ يا بنَ عوفٍ ؛ إنِّي خلَوتُ بنفسي ، فحدثتني نفسي فقالت : أنتَ أميرُ المؤمنين ، فمَن ذا أفضلُ منكَ ؟! فأردتُ أن أعرِّفَها نفسَها)[2] .

وللإعجاب أسباب ، فمِنْ أقوىٰ أسبابه : كثرةُ مديح المتقرِّبين ، وإطراء المتملِّقين ، الذين قد جعلوا النِّفاقَ مادّةً ومكسباً ، والتملُّقَ خديعةً وملعباً ، فإذا وجدوه مقبولاً في العقول الضعيفة . . أغرَوا أربابها باعتقاد كذبهم ، وجعلوا ذلك ذريعةً إلى الاستهزاء بهم .

وقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه سمع رجلاً يزكِّي رجلاً ، فقال : « قطَعْتَ مطاهُ ؛ لو سمِعَها . . ما أفلَحَ بعدَها »[3] .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : (المدحُ ذبحٌ)[4] .

---

(١) أشر النفس : بطرها وتكبرها .

(٢) رواه في « المجالسة وجواهر العلم » (١٦٨٢) ، و« تاريخ دمشق » (٤٤/٣١٤) ، وأي يوم : فيه تحسُّرٌ علىٰ ما فات مع أنه خليفة ، وقصرت بنفسك : لأن تحسُّر العالي الكبير على الدنيء الحقير من دناءة النفس ، ويحك : كلمة رحمة ؛ كما أن (ويل) كلمة عذاب .

(٣) رواه الإمام أحمد في « المسند » (٥/٥١) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٤٥٢٧) عن سيدنا أبي بكرة رضي الله عنه ، ومطاه : ظهره .

(٤) رواه البخاري في « الأدب المفرد » (٣٣٦) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت » (٦٠٦) ، والمدح ذبحٌ ، لا يحسُّ به المذبوح ؛ لحدَّة سنان اللسان .

وقال ابن المقفَّع : (قابلُ المدحِ كمادحِ نفسِه)[1] .

وقال بعض الحكماء : (مَن رضيَ أن يُمدَح بما ليس فيه . . فقد أمكنَ الساخرَ منه) .

رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إيّاكُمْ والتَّمادُحَ ؛ فإنَّه الذَّبحُ »[2] ، « إنْ كان أحدُكُم مادحاً أخاه لا مَحالةَ . . فليقل : أحسبُ ، ولا أُزكِّي على اللهِ أحداً »[3]

وقيل : فيما أنزل اللهُ تعالىٰ من الكتب السالفة : (عجباً لمَن قيل فيه الخيرُ وليس فيه كيف يفرحُ ؟! وعجباً لمَن قيل فيه الشرُّ وهو فيه كيف يغضبُ ؟!)[4] .

وقال بعض الشعراء : [من البسيط]

يـا جـاهـلاً غـرَّهُ إفـراطُ مـادِحِـهِ ... لا يغلِبَنْ جهلُ مَن أطراكَ علمَكَ بِكْ
أثنـىٰ وقـال بـلا عِلـمٍ أحـاطَ بِـهِ ... وأنتَ أعلَمُ بالمحصولِ مِن رِيَبِكْ

وهٰذا أمرٌ ينبغي للعاقل أن يضبطَ نفسه عن أن يستفزَّها ، ويمنعَها من تصديق المدح لها ؛ فإنَّ للنفس ميلاً إلىٰ حبِّ الثناء ، وسماع المدح .

قال الشاعر[5] : [من الكامل]

يَهـوى الثَّنـاءَ مُبـرِّزٌ ومُقصِّـرٌ ... حُـبُّ الثَّنـاءِ طَبيعـةُ الإنسـانِ

وإذا سامح نفسَه في هٰذه الصَّبْوة ، وتابعَها علىٰ هٰذه الشهوة . . تشاغلَ بها عن الفضائل الممدوحة ، ولها بها عن المحاسن الممنوحة ، فصار الظاهرُ من مدحه كذباً ، والباطنُ من ذمِّه صدقاً ، وعند تقابلهما يكون الصِّدقُ أَلزمَ الأمرين ،

---

(١) الأدب الكبير (ص٢٤٨) ضمن « آثار ابن المقفع » .

(٢) رواه ابن ماجه (٣٧٤٣) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٦٧٨٦) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٩٨٢٥) عن سيدنا معاوية رضي الله عنه ، فإنه الذبح : لأن المذبوح يفتر عن العمل ، والمدح يوجب الفتور ، أو لأنه يوجب العجب والكبر وهو مهلكٌ كالذبح .

(٣) رواه البخاري (٢٦٦٣) ، ومسلم (٣٠٠٠) عن سيدنا أبي بكرة رضي الله عنه .

(٤) رواه في « المجالسة وجواهر العلم » (٦/٢٤٣٥) ، وأورده في « عيون الأخبار » (١/٢٧٦) .

(٥) البيت لابن نباتة السعديّ في « ديوانه » (١/٥٤٦) ، والمبرِّز : من فاق أصحابه فضلاً وشجاعة ، وضده المقصِّر .

وهٰذه خُدعةٌ **لا يرتضيها عاقل** ، ولا ينخدع بها مميِّز .

وليعلم أنَّ المتقرِّبَ بالمدح **يُسرف مع القَبول** ، ويكفُّ مع الإباء ، فلا يغلبه حسنُ الظنِّ علىٰ تصديق مدحٍ هو أعرف بحقيقته .

ولتكن تهمة المادح أغلبَ عليه ؛ **فقلَّ مدحٌ** كان جميعُه صدقاً ، **وقلَّ ثناءٌ** كان كلُّه حقّاً ؛ **ولذلك كره أهل الفضل** أن يطلقوا ألسنتهم بالثناء والمدح ؛ **تحرُّزاً من التجاوز فيه** ، وتنزُّهاً عن التملُّق به[1] .

وقد روىٰ مكحولٌ قال : قال رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم : « **لا تكُونُوا عَيّابِينَ** ، ولا تُكونُوا لَعّانِينَ ، **ولا مُتمادِحِينَ** ، ولا مُتماوِتِينَ »[2] .

وحكى الأصمعيُّ : أن أبا بكر الصدِّيقَ رضي الله عنه كان إذا مُدِح . . قال : (**اللهمَّ ؛ أنتَ أعلمُ بي من نفسي** ، وأنا أعلمُ بنفسي منهم ، **اللهمَّ ؛ اجعَلْني خيراً ممَّا يحسبون** ، واغفر لي ما لا يعلمون ، **ولا تؤاخِذْني بما يقولون**)[3] .

وقال بعض الشعراء[4] : [من الطويل]

إذا المَرْءُ لم يَمدَحْهُ حُسْنُ فِعالِهِ فمادِحُهُ يَهذي وإنْ كانَ مُفصِحا

وربَّما آلَ حُبُّ المدح بصاحبه إلىٰ أن يصيرَ مادحَ نفسِه ؛ **إمّا لتوهُّمه** أنَّ الناس قد غفلوا عن فضله ، وأخلُّوا بحقِّه ، **وإمّا ليخدعَهم** بتدليس نفسه بالمدح والإطراء ، فيعتقدوا أنَّ قوله حقٌّ متبَع ، وصدقٌ مستمَع ، **وإمّا ليتلذَّذَ** بسماع الثناء ، ويَسُرَّ نفسَه بالمدح والإطراء ؛ كما يتغنّىٰ لنفسه طرباً إذا لم يسمع صوتاً مطرباً ، ولا غناءً ممتعاً ، **ولأيٍّ ذلك كان** . . **فهو الجهل الصريح** ، والنقص الفاضح .

---

(١) المدح متضمنٌ للكذب والباطل ، وقد قيل : (**إن أحلى المدح أكذبه !!**) .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٣٩١) ، والشهاب في « مسنده » (٩٤٠) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٧/ ٨١) .

(٣) رواه في « أسد الغابة » (٣/ ٣٢٥) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٠/ ٣٣٢) ، **وقول سيدنا أبي بكر رضي الله عنه ودعاؤه هٰذا . . هو توبة الممدوح ، فاقتدوا به رضي الله عنه .**

(٤) أورد البيت في « عيون الأخبار » (١/ ٢٧٧) .

قال بعض الشعراء[1] : [من الطويل]

وما شرفٌ أن يمدحَ المرءُ نفسَهُ ... ولٰكــنَّ أعمــالاً تــذُمُّ وتمــدَحُ
وما كلّ حينٍ يصدقُ المرءَ ظنُّهُ ... ولا كـلُّ أصحـابِ التِّجـارةِ يـربَـحُ
ولا كلُّ مَن ترجو لغَيبِكَ حافظاً ... ولا كلُّ مَن ضمَّ الوديعةَ يصلُحُ

وينبغي للعاقل أن يسترشدَ إخوانَ الصِّدق ، الذين هم أصفياء القلوب ، ومرايا المحاسن والعيوب علىٰ ما ينبِّهونه عليه من مساويه التي صرفه حسنُ الظنِّ عنها ؛ فإنَّهم أمكنُ نظراً ، وأسلمُ فكراً ، ويجعلَ ما ينبِّهونه عليه من مساويه عِوَضاً عن تصديق المدح فيه .

وقد روىٰ أنس بن مالك ، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « المؤمنُ مِرآةُ المؤمنِ ، إذا رأىٰ فيه عيباً . . أصلَحَهُ »[2] .

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : (رحِمَ اللهُ امرأً أهدىٰ إلينا مساوِيَنا)[3] .

وقيل لبعض الحكماء : (أتحبُّ أن تُهدىٰ إليك عيوبُك ؟ قال : نَعَمْ ؛ من ناصحٍ)[4] .

ومما يقارب معنىٰ هـٰذا القول : ما رُوي عن عمر رضي الله عنه أنه قال لابن عباسٍ رضي الله عنهما : (مَن ترىٰ أن نولِّيَه حمصَ ؟ قال : رجلاً صحيحاً منك ، صحيحاً لك ، قال : فكنْ أنت ذلك الرجلَ ، قال : لا تنتفع بي مع سوء ظنِّي بك ، وسوء ظنِّكَ بي !!)[5] .

---

(١) الأبيات للمغيرة بن حبناء في « ديوانه » (٣/ ٨٢ ـ ٨٣) ضمن « شعراء أمويون » .

(٢) رواه البزار في « مسنده » (٦١٩٣) ، والطبراني في « المعجم الأوسط » (٢١١٤) بنحوه ، ولفظه رواه البخاري في « الأدب المفرد » (٢٣٨) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) رواه الدرامي في « مسنده » (٦٧٥) ، وأورده في « البيان والتبيين » (٣/ ١٣٤) .

(٤) رواه الخطيب في « المتفق والمفترق » (٩٦٢) ، وأبو نعيم في « حلية الأولياء » (٧/ ٢١٧) من قول مِسعَر بن كِدام رحمه الله تعالىٰ ، ومن ناصح ؛ أي : يريد براءتي من العيوب ، لا من عدوٍّ يشمت بالذنوب .

(٥) أورده ابن المعتز في « البديع » (ص٥٤) ، و« نثر الدرّ » (١/ ٤١٤) ؛ وفيه : (مع سوء ظني في سوء ظنك بي) ، وسوء ظنك بي : لمَّا حملتَ كلامي على التعريض وسؤال الولاية ، ولا يُنتَفع مع سوء الظن .

وقد قيل في منثور الحكم : (**مَن أظهر عيبَ نفسه . . فقد زكَّاها**)[1] .

فإذا قطع أسباب الكِبر ، وحسم موادَّ العُجب . . **اعتاض بالكِبر تواضعاً** ، وبالعُجب تودُّداً ؛ **وذلك من أوكد أسباب الكرامة** ، وأقوىٰ موادِّ النِّعَم ، وأبلغ شافعٍ إلى القلوب ، يعطفها إلى المحبة ، ويثنيها عن البِغضة .

وقد قال بعض الحكماء : (**مَن برئ من ثلاثٍ** . . نال ثلاثاً ؛ **مَن برئ من الشَّرَه** . . نال العزَّ ، **ومَن برئ من البخل** . . نال الشَّرَف ، **ومَن برئ من الكِبر** . . نال الكرامة) .

وقال مصعب بن الزبير : (**التواضع أحدُ مصائد الشَّرَف**)[2] .

وقيل في منثور الحكم : (**مَن دام تواضُعه** . . كثر صديقُه) .

وقد تُحدِث المنازل والولايات لقومٍ أخلاقاً مذمومة ، يُظهرها سوءُ طباعهم ، **ولآخرين فضائل محمودة** ، يبعث عليها زكيُّ شِيَمهم ؛ **لأنَّ لتقلُّب الأحوال سكرةً** تُظهر من الأخلاق مكنونَها ، ومن السرائر مخزونَها ، لا سيَّما إذا هجمت بغير تدريج ، وطرقت من غير تأهُّب .

وقال بعض الحكماء : (**في تقلُّب الأحوال تُعرَف جواهرُ الرجال**)[3] .

وقال الفضل بن سهل : (**مَن كانت ولايتُه فوقَ قدره** . . تكبَّر لها ، **ومَن كانت ولايتُه دونَ قدره** . . تواضع لها)[4] .

وقال بعض البلغاء : (**الناس في الولاية رجلان : رجلٌ يجِلُّ عن العمل بفضله** ومروءته ، **ورجلٌ يجلُّ بالعمل** لنقصه ودناءته ، **فمَن جلَّ عن عمله** . . ازداد به تواضعاً وبِشراً ، **ومَن جلَّ عنه عملُه** . . لبس به تجبُّراً وكِبراً) .

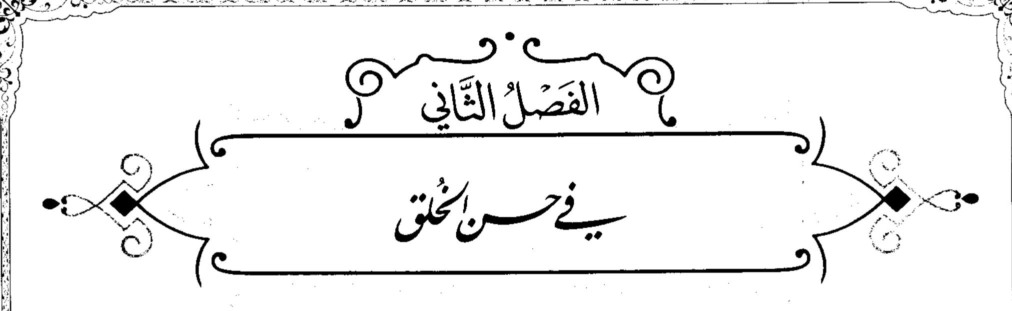
---

(١) أورده في « عيون الأخبار » (١/ ٢٧٥) ، و« بهجة المجالس » (١/ ٥٢٠) .

(٢) أورده في « لباب الآداب » (ص٢٥٧) ، و« زهر الآداب » (١/ ٥٥) ، وقال في « منهاج اليقين » (ص٤٠٤) : (**مصائد** : جمع مصيدة ، ولعله مُصحَّف : مصاعد ؛ جمع : مصعد) .

(٣) أورده في « الإمتاع والمؤانسة » (ص٣٦٥) ، و« التذكرة الحمدونية » (١/ ٣٥٢) .

(٤) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص١٤٩) .



الفَصْلُ الثَّاني
في حسن الخلق

رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنَّ اللهَ تعالى اختارَ لكُمُ الإسلامَ دِيناً ، فأكرِمُوهُ بحُسْنِ الخُلُقِ والسَّخاءِ ؛ فإنَّه لا يكمُلُ إلا بهما »(١) .

وقال الأحنف بن قيس : (ألا أخبرُكم بأدوأ الدَّاءِ ؟ قالوا : بلىٰ ، قال : **الخُلُق الدَّنيُّ ، واللسان البَذيُّ**)(٢) .

وقال بعض الحكماء : (مَن ساء خُلقُه . . ضاق رزقُه)(٣) . وعلَّة هـٰذا القول ظاهرةٌ(٤) .

وقال بعض البلغاء : (**الحسَنُ الخُلقِ** : مَنْ نفسه في راحة ، والناسُ منه في سلامة ، **والسيِّءُ الخُلقِ** : الناسُ منه في بلاء ، وهو من نفسه في عناء)(٥) .

وقال بعض الأدباء : (**عاشِرْ أهلَك بأحسن أخلاقك** ؛ فإنَّ الثَّواءَ فيهم قليلٌ)(٦) .

وقال بعض الشعراء(٧) : [من الوافر]

إذا لم تتَّسِعْ أخلاقُ قومٍ ... يضِقْ بهِمُ الفَسيحُ منَ البلادِ
إذا ما المرءُ لم يُخلَقْ لبيباً ... فليس اللبُّ عن قِدَمِ الوِلادِ

---

(١) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٠/ ٢٨٩) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت » (٣٤١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٤/ ٣٣٧) ، واللسان البذي : الفاحش القول وقبيحه .
(٣) أورده في « المستطرف » (١/ ٨٩) .
(٤) وهي أن الرزق يكتسب بالألفة ، ولا ألفة بسوء الخلق .
(٥) أورده الحافظ المزي في « تهذيب الكمال » (١٠/ ٧٣) من قول عبيد الله بن أبي جعفر رحمه الله تعالىٰ .
(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « مكارم الأخلاق » (٤٠) ، وأورده في « نثر الدرّ » (٥/ ١٩٠) من كلام الحسن البصريّ رحمه الله تعالىٰ ، والثواء : البقاء أو الإقامة .
(٧) أورد البيتين في « فضل الكلاب » (ص١٦) ، و« تاريخ دمشق » (١٦/ ٨) .

فإذا حسنت أخلاقُ الإنسان . . كثر مُصافُوه ، وقلَّ مُعادُوه ، وتسهَّلت عليه الأمور الصِّعاب ، ولانت له القلوبُ الغِضاب .

وقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « حُسنُ الخُلُقِ ، وحُسنُ الجِوارِ . . يَعمُرانِ الدِّيارَ ، ويَزيدانِ في الأعمارِ »(١) .

وقال بعض الحكماء : (في سَعة الأخلاق كنوزُ الأرزاق)(٢) .

وسبب ذلك : ما ذكرنا من كثرة الأصفياء المُسعِدين ، وقلّة الأعداء المجحِفين ؛ ولذلك قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « أحبُّكُمْ إليَّ أحسَنُكم أخلاقاً ، المُوَطَّؤُونَ أكنافاً ، الذين يألَفُونَ ويُؤلَفُونَ »(٣) .

وحسن الخُلق : أن يكون سهلَ العريكة ، ليِّن الجانب ، طَلْقَ الوجه ، قليلَ النُّفور ، طيِّب الكلمة ، وقد بيَّن رسولُ الله صلى الله عليه وسلم هٰذه الأوصاف فقال : « أهلُ الجنّةِ : كلُّ هَيِّنٍ ليِّنٍ ، سهل طَلْقٍ »(٤) .

ولِمَا ذكرنا من هٰذه الأوصاف حدودٌ مقدَّرة ، ومواضعُ مستحَقَّة ؛ كما قال الشاعر(٥) : [من البسيط]

أصفُو وأكدرُ أحياناً لمُختَبِري ... وليس مُستحسَناً صَفْوٌ بلا كَدَرِ

وليس يريد الكدَرَ الذي هو البَذاءُ وشراسةُ الخُلق ؛ فإن ذلك ذمٌّ لا يُستحسَن ، وعيبٌ لا يُرتضىٰ ، وإنَّما يريد الكفَّ والانقباض في موضعٍ يُلام فيه المساعد ، ويُذمُّ فيه الموافق .

فإذا كانت لمحاسن الأخلاق حدودٌ مقدَّرة ، ومواضع مستحَقّة ؛ فإن تجاوز

---

(١) رواه الإمام أحمد في « المسند » (٦/١٥٩) عن السيدة عائشة رضي الله عنها ، وأورده في « عيون الأخبار » (٣/٢٣) .

(٢) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص١٤) ، و« محاضرات الأدباء » (١/٥٦٦) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت » (٢٥٥) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٢/٣٢٠) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، والموطؤون أكنافاً : المتواضعون الليِّنون الهيِّنون .

(٤) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٧٧٧١) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٥) البيت لسعيد الخالديّ في « ديوان الخالديَّين » (ص١٢٩) .

بها الحدَّ . . صارت مَلَقاً ، وإن عدل بها عن مواضعها . . صارت نفاقاً ، والمَلَقُ ذلٌّ ، والنِّفاقُ لؤمٌ ، وليس لمَن وُسِم بهما ودٌّ مبرور ، ولا أثرٌ مشكور .

وقد روىٰ حكيم ، عن جابر بن عبد الله رضي الله تعالىٰ عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « شرُّ الناسِ ذو الوَجهَينِ ؛ الذي يأتي هؤلاءِ بوجهٍ ، وهؤلاءِ بوجهٍ »(١) .

وروىٰ مكحول ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا ينبغي لذي الوجهَينِ أن يكونَ وجيهاً عندَ الله »(٢) .

وقال سعيد بن أبي عَروبة : (لأَنْ يكونَ لي نصفُ وجهٍ ونصفُ لسانٍ علىٰ ما فيهما من قُبح المنظر ، وعجز المَخبَر . . أحبُّ إليَّ من أن أكونَ ذا وجهَين ، وذا لسانَين ، وذا قولَين مختلفَين)(٣) .

وقال الشاعر(٤) : [من مجزوء الكامل]

خَلِّ النِّفاقَ لأهلِهِ ... وعليكَ فالتَمِسِ الطَّريقا
وارغَبْ بنفسِكَ أن ترىٰ ... إلا عدوّاً أو صديقا

وقال إبراهيم بن محمد(٥) : [من الطويل]

وكَمْ مِن صديقٍ وُدُّهُ بلسانِهِ ... خَؤُونٌ بظهرِ الغَيبِ لا يتذمَّمُ
يُضاحِكُني عُجْباً إذا ما لقيتُهُ ... ويصدِفُني منهُ إذا غِبتُ أسهُمُ
كذلكَ ذو الوجهَينِ يُرضِيكَ شاهداً ... وفي غَيبِهِ إنْ غابَ صابٌ وعَلقَمُ

---

(١) رواه البخاري (٧١٧٩) ، ومسلم (٩٩/٢٥٢٦) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .
(٢) رواه البخاري في « الأدب المفرد » (٣١٣) ، والإمام أحمد في « المسند » (٢/٢٨٩) عن سلمان الأغرّ عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .
(٣) أورده في « البيان والتبيين » (٢/١٤٩) .
(٤) البيتان لإبراهيم الصوليّ في « ديوانه » (ص١٦١) ضمن « الطرائف الأدبية » .
(٥) أورد الأبيات في « التذكرة الحمدونية » (٢/٢٠٧) ، و« روضة العقلاء » (١/٤٣٦) ، وصابٌ وعلقم : الشيء المرُّ مثل الحنظل .

وربما تغيَّر حُسنُ الخُلق والوِطاءُ ، إلى الشَّراسة والبَذاء ؛ لأسبابٍ عارضة ، وأمورٍ طارئة ، تجعل اللِّينَ خُشونةً ، والوِطاءَ غِلظةً ، والطَّلاقةَ عُبوساً ؛ فمن أسباب ذلك :

ـ الوِلاية : التي قد تُحدِث في الأخلاق تغيُّراً ، وعلى الخُلَطاء تنكُّراً ؛ إمّا من لؤمِ طبعٍ ، وإمّا من ضيقِ صدرٍ .

وقد قيل : (مَن تاه في ولايته . . ذلَّ في عَزله)[1] .

وقيل : (ذلُّ العَزل يَضْحك من تِيه الوِلاية)[2] .

ومنها : العَزل ؛ فقد يسوء به الخُلق ، ويضيق به الصدر ؛ إمّا لشدّة أسف ، أو لقلّة صبر .

حكىٰ حُمَيد الطويل : أنَّ عمّار بن ياسر عُزِل عن ولاية ، فاشتدَّ ذلك عليه ، وقال : (إنِّي وجدتُها حلوةَ الرَّضاع ، مرَّة الفِطام)[3] .

ومنها : الغنىٰ ؛ فقد تتغيَّر به أخلاق اللئيم بطَراً ، وتسوء طرائقه أشَراً ؛ ولذلك قيل : (مَن نال . . استطال)[4] .

وأنشد الرِّياشيُّ[5] : [من البسيط]

غضبانُ يعلَمُ أنَّ المالَ ساقَ لهُ ... ما لم يَسُقْهُ له دِينٌ ولا خُلُقُ
فمَن يكُنْ عن كِرامِ النّاسِ يسألُني ... فأكرَمُ النّاسِ مَن كانت له وَرِقُ

---

(١) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص١٤٩) .
(٢) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص١٤٩) ، و« زهر الآداب » (٢/ ٨٢٦) من قول ابن المعتز .
(٣) أورده في « المحاسن والأضداد » (ص٤١) ، و« البصائر والذخائر » (١/ ١٢٨) .
(٤) أورده في « الإمتاع والمؤانسة » (ص٣٦٥) ، و« ديوان المعاني » (٢/ ٩٤) ، واستطال : تكبَّر .
(٥) أورد البيتين في « عيون الأخبار » (١/ ٢٤٠) ، و« العقد الفريد » (٣/ ٢٩) .

وقال بعض الشعراء(١) : [من الطويل]

فـإنْ تكُـنِ الـدُّنيـا أنـالَتْـكَ ثـروةً ... فأصبحتَ ذا يُسرٍ وقد كنتَ ذا عُسرِ
لقد كشفَ الإثراءُ منكَ خلائقاً ... منَ اللؤمِ كانت تحتَ ثَوبٍ منَ الفقرِ

وبحسب ما أفسده الغنىٰ . . كذلك يصلحه الفقر .

كتب قتيبةُ بن مسلمٍ إلى الحجّاج : (أنَّ أهل الشام قد التاثُوا عليه)(٢) ، فكتب إليه : (أنِ اقطَعْ عنهم الأرزاق) ، ففعل ، فساءت حالهم ، فاجتمعوا إليه فقالوا : (أقِلْنا) فكتب إلى الحجّاج فيهم ، فكتب إليه : (إن كنتَ آنستَ منهم رشداً . . فأجرِ عليهم ما كنتَ تُجري) .

واعلم : أنَّ الفقرَ جندُ الله الأكبر ، يذلُّ به كلَّ جبّارٍ عنيدٍ متكبِّر ، وقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لولا أنَّ اللهَ تعالىٰ أذَلَّ ابنَ آدمَ بثلاثٍ . . ما طأطأَ رأسَهُ لشيءٍ : الفقرُ ، والمَرضُ ، والموتُ »(٣) .

ومنها : الفقر ؛ فقد يتغيَّر به الخُلق ؛ إمّا أنَفَةً من ذلِّ الاستكانة ، أو أسفاً علىٰ فائت الغنىٰ ؛ ولذلك قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « كادَ الفقرُ أنْ يكونَ كُفْراً ، وكادَ الحسَدُ أنْ يغلِبَ القَدَرَ »(٤) .

وقال أبو تمام الطائي(٥) : [من الطويل]

وأعجـبُ حـالاتِ ابـنِ آدمَ خُلْقُـهُ ... يضِلُّ إذا فكَّرْتَ في كُنْهِهِ الفِكْرُ
فيفـرَحُ بـالشَّـيءِ القليـلِ بقـاؤُهُ ... ويجـزَعُ لمّـا صار وَهْـوَ لـه ذُخْـرُ

---

(١) البيتان لإبراهيم الصوليّ في « ديوانه » (ص١٥٨) ضمن « الطرائف الأدبية » .
(٢) التاثوا عليه : تغيَّروا علىٰ قتيبة وفسدوا عليه حين كان كاتب عبد الملك .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « إصلاح المال » (٤٨٤) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (٤٥٦) من كلام الحسن البصريّ رحمه الله تعالىٰ .
(٤) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٦١٨٨) ، وأبو نعيم في « حلية الأولياء » (٣/ ٥٣) .
(٥) البيتان في « ديوانه » (٤/ ٨٦) .

وربَّما تسلَّىٰ مَنْ هـٰذه حالُه بالأماني وإنْ قلَّ صدقُها ؛ فقد قيل : (قلَّما تصدقُ الأُمنيةُ)[1] لـٰكن قد يعتاضُ بها سُلْوةً من همٍّ ، ومسرّةً تُرجىٰ .

وقد قال أبو العتاهية[2] : [من مجزوء الكامل]

حَـــرِّكْ مُنـــاكَ إِذَا اغتمَمْـ ـــتَ فـــإنَّهـــنَّ مَـــراوِحُ

وقال آخر[3] : [من البسيط]

إذا تمنَّيــتُ بــتُّ الليــلَ مغتبِطــاً إنَّ المُنىٰ رأسُ أموالِ المَفـاليسِ

ومنها : الهموم التي تذهل اللبَّ ، وتشغل القلبَ ، فلا يتَّسع لاحتمال ، ولا يقوىٰ علىٰ صبر ؛ فقد قيل : (**الهمُّ كالسّمِّ**)[4] .

وقال بعض الأدباء : (**الحزن كالداء المخزون في فؤاد المحزون**)[5] .

وقال بعض الشعراء[6] : [من المتقارب]

همـــومُـــكَ بـــالعيـــشِ مقـــرونـــةٌ فمـــا تقطَـــعُ العيـــشَ إلاّ بهَـــمّ
إذا تـــمَّ أمـــرٌ بـــدا نقصُـــهُ تـــوقَّـــعْ زوالاً إذا قيـــل تَـــمّ
إذا كنـــتَ فـــي نعمـــةٍ فـــارْعَهـــا فـــإنَّ المَعـــاصـــيْ تُـــزيـــلُ النِّعَـــمْ
وحـــامِ عليهـــا بشكـــر الإلـٰــه فـــإنَّ الإلـٰــه ســـريـــع النقـــمْ

---

(١) أورده في « ديوان المعاني » (٢/ ٩٤) .
(٢) البيت في « ديوانه » (ص٧٢ـ دار صادر) ؛ فالحرارة تلزم الاغتمام ، ولذا يكون دمع الحزن حاراً ومضراً بالعين ، والأمنية مروحة الاغتمام .
(٣) أورد البيت في « عيون الأخبار » (١/ ٢٦١) ، و« المحاسن والمساوىء » (ص٢٧٠) .
(٤) **الهم** : ما يكون لأمر يُنتظر وقوعه وذهابه ، **والغم** : ما يكون لأمرٍ واقعٍ أو لخيرٍ فات ، وهما يُحدِثان الحميات اليومية ، وقد كان صلى الله عليه وسلم يستعيذ من الهم والحزن دبر كلّ صلاة .
(٥) أورده في « الكشكول » (٢/ ١٧١) .
(٦) أورد الأبيات الثلاثة الأولىٰ مع الخامس في « تاريخ دمشق » (٥١/ ١٠٣) ، والبيت الرابع زيادة من (هـ) ، وقوله : (إلا بسمٍّ) أي : بسَمِّ النحل ؛ إلا أنه أراد العموم ، واستحضر تلك الصورة البديعة ؛ للتنبيه على الغفلة ، فكل نعمةٍ تنعمت بها من الدنيا ليست نعمة بل هي سم ونقمة ، متىٰ تدرك أوانه . . تجد آلامه .

حــــلاوةُ دنيـــاكَ مسمــــومـــةٌ   فمــا تــأكــلُ الشَّهْــدَ إلا بسَـــمّ
فكـــم قَـــدَرٍ دبَّ فـــي مُهلـــةٍ   فلـم يعلـمِ النّـاسُ حتّـىٰ هَجَـمْ

ومنها : الأمراض التي يتغيَّر بها الطبع كما يتغيَّر بها الجسم ، فلا تبقى الأخلاق على اعتدال ، ولا يقدر معها على احتمال .

وقد قال المتنبي[1] : [من الخفيف]

آلــةُ العَيــشِ صِحّــةٌ وشَبــابٌ   فــإذا وَلَّيــا عــنِ المــرءِ وَلّــىٰ
وإذا الشيـخ قــال أفٍّ فمــا مــلَّ   حيــاةً وإنمــا الضعــف مــلاَّ
وإذا لــم تجـد مـن النـاس كفْـواً   ذاتُ خِـدْرٍ أرادتِ المـوت بعـلا
أبــداً تَستــرِدُّ مــا تَهَــبُ الــدُّنـ   ـيا فيا ليت جُودَها كـان بُخْلا

ومنها : علوُّ السِّنِّ ، وحدوثُ الهرَم ؛ لتأثيره في آلة الجسد ، كذلك يكون تأثيره في أخلاق النفس ، **فكما يضعف الجسد** عن احتمال ما كان يُطيقُه من الأثقال . . **فكذلك تعجز النفس** عن احتمال ما كانت تصبرُ عليه من مخالفة الوِفاق ، ومضض الشِّقاق ، وكذلك ما ضاهاه[2] .

قال منصور النَّمَريُّ[3] : [من البسيط]

ما كنتُ أُوفي شبابي كُنْهَ غِرَّتهِ   حتَّىٰ مضىٰ فإذا الـدُّنيا لـه تَبَعُ
أصبحتِ لم تَطعَمِي ثُكْلَ الشَّبابِ ولم   تَشجَـي بغُصَّتِـهِ فـالعـذرُ لا يقَـعُ
مـا كـان أقصرَ أيّـامَ الشَّبـابِ ومـا   أبقـىٰ حـلاوةَ ذِكـراهُ الـذي يَـدعُ
ما واجهَ الشَّيبَ من عينٍ وإنْ رمقَتْ   إلا لــه نَبْــوةٌ عنــه ومُــرتَــدَعُ

---

(١) الأبيات في « ديوانه » (٣/ ١٢٩ـ١٣٠) .
(٢) ومضض الشقاق : وجع العداوة والمخالفة ، وما ضاهاه : ما شابهه .
(٣) الأبيات في « ديوانه » (ص٩٦ـ ٩٧) .

قد كدتَ تقضي علىٰ فَوتِ الشَّبابِ أسىً ... لـولا تَعـزِّيـكَ أنَّ الشَّيـبَ مُنقطِـعُ
أبكـي شَبـابـاً سُلِبْنـاهُ فكـانَ ولا ... تفـي بقيمتِـهِ الـدُّنيـا ومـا تَسَـعُ

فهـٰذه سبعة أسبابٍ إن أحدثت سوءَ الخُلق . . كان عامّاً .

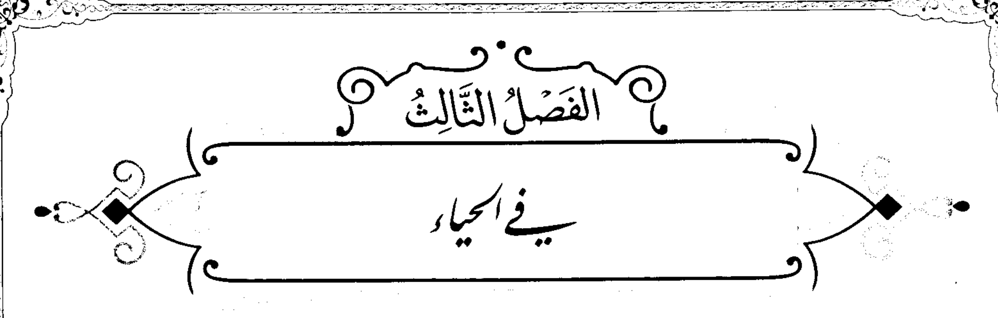
وهـٰهنا سببٌ خاصٌّ قد يُحدِث سوءَ خُلقٍ خاصٍّ ؛ وهو **البغض الذي تنفر منه النفس** ، فتُحدِث نفوراً على المبغوض يؤول إلىٰ سوء خُلقٍ يخصُّه دون غيره .

وإذا كان سوءُ الخُلق حادثاً لسبب . . كان زوالُه مقروناً بزوال ذلك السبب ، **ثم بالضدِّ**[1] .

---

(١) **وأعيا الأسباب علاجاً** : الهرم ؛ كما قال التميمي : (من الطويل)

إذا كـانـت السبعـون سنَّـك لـم يكـن ... لـدائـك إلا أنْ تمـوتَ طبيـبُ



اعلم : أنَّ الخيرَ والشرَّ معانٍ كامنةٌ تُعرَف بِسماتٍ دالَّة ؛ كما قالت العرب في أمثالها : (**تُخبِرُ عن مَجهولِه مَرآتُه**)[١] .

وكما قال سَلْم بن عمرو الشاعر[٢] : [من المنسرح]

لا تَسألِ المرءَ عن خَلائقِهِ في وجهِهِ شاهدٌ منَ الخَبَرِ

فسِمةُ الخير : الدَّعَةُ والحياء ، **وسِمةُ الشرِّ** : القِحَةُ والبَذاء[٣] ، **وكفىٰ بالحياء خيراً** أن يكون على الخير دليلاً ، **وكفىٰ بالقِحَة والبَذاء شرّاً** أن يكونا إلى الشرِّ سبيلاً .

وقد روىٰ حسان بن عطية ، عن أبي أمامة رضي الله تعالىٰ عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **الحَياءُ والعِيُّ** شُعبتانِ منَ الإيمانِ ، **والبَذاءُ والبَيانُ** شُعبتانِ منَ النِّفاقِ »[٤] .

ويشبه أن يكون العِيُّ في معنى الصمت ، والبيانُ في معنى التشدُّق ؛ كما جاء في الحديث الآخر : « **إنَّ أبغضَكُمْ إليَّ** : الثَّرثارُونَ المُتفيهِقُونَ المُتشدِّقونَ »[٥] .

وروىٰ أبو سلَمةَ ، عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال : « **الحياءُ** منَ الإيمانِ ، **والإيمانُ في الجنّةِ** ، **والبَذاءُ** من الجَفاءِ ، **والجَفاءُ في النار** »[٦] .

---

(١) أورده أبو عبيد في « الأمثال » (ص٢٥٤) .
(٢) البيت في « ديوانه » (ص١٠٠) .
(٣) القحة : مصدر (وقح الرجل) أي : قلَّ حياؤه ، والبذاء : التكلم بالكلام الفاحش .
(٤) رواه الحاكم في « المستدرك » (١/٩) ، والترمذي (٢٠٢٧) .
(٥) رواه ابن حبان في « صحيحه » (٤٨٢) ، والترمذي (٢٠١٨) .
(٦) رواه ابن حبان في « صحيحه » (٦٠٨) ، والترمذي (٢٠٠٩) .

وقال بعض الحكماء : (**مَن كساه الحياءُ ثوبَه** . . لم يرَ الناسُ عيبَه)[١] .

وقال بعض البلغاء : (**حياةُ الوجهِ بحيائه** ؛ كما أنَّ حياة الغرس بمائه)[٢] .

وقال بعض البلغاء العلماء : (**يا عجبا !! كيف لا تستحِي** من كثرة ما لا تستحِي ، **وتتَّقي من طول ما لا تتَّقي ؟!**) .

وقال بعض الشعراء وهو صالح بن عبد القدّوس[٣] : [من الطويل]

إذا قلَّ ماءُ الوجهِ قلَّ حياؤُهُ ... ولا خيرَ في وجهٍ إذا قلَّ ماؤُهُ
حياءَكَ فاحفَظْهُ عليكَ فإنّما ... يدلُّ علىٰ فعلِ الكريمِ حياؤُهُ

وليس لمَن سُلِب الحياءَ صادٌّ عن قبيح ، ولا زاجرٌ عن محظور ، فهو يُقْدِمُ علىٰ ما يشاء ، ويأتي ما يهوىٰ ، وبذلك جاء الخبر : روىٰ شعبةُ ، عن منصور ، عن رِبعيٍّ ، عن أبي مسعود البدريِّ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **إنَّ ممّا أدركَ النّاسُ مِن كلامِ النُّبُوةِ الأُولىٰ** : يا بنَ آدمَ ؛ إذا لم تستَحْيِ . . فاصنَعْ ما شِئتَ »[٤] .

وليس هٰذا القولُ إغراءً منه بفعل المعاصي عند قلّة الحياء ؛ كما توهَّمه بعضُ مَن جهل معانيَ الكلام ، ومواضعاتِ الخطاب .

وفي مثل هٰذا الخبر قولُ الشاعر[٥] : [من الوافر]

إذا لم تَخشَ عاقبةَ اللَّيالي ... ولم تَستحْيِ فاصنَعْ ما تَشاءُ
فلا واللهِ ما في العَيشِ خيرٌ ... ولا الدُّنيا إذا ذهَبَ الحَياءُ
يعيشُ المرءُ ما استحيا بخيرٍ ... ويبقى العُودُ ما بقيَ اللِّحاءُ

---

(١) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص٤١٣) ، و« زهر الآداب » (٢/ ٩٨٤) من قول يحيى بن معاذ رحمه الله تعالىٰ .

(٢) ذكره المناوي في « التيسير شرح الجامع الصغير » (١/ ٥١٠) .

(٣) البيتان في « ديوانه » (ص١١٩) .

(٤) رواه البخاري (١٦٢٠) ، وابن حبان في « صحيحه » (٦٠٧) ، وأبو داوود (٤٧٩٧) ، وأحمد في « مسنده » (٤/ ١٢١) .

(٥) الأبيات لأبي تمام في « ديوانه » (٤/ ٢٩٧) .

واختلف أهل العلم في معنىٰ هـٰذا الخبر :

فقال أبو بكر محمد بن علي الشاشيُّ في « أصول الفقه » : (معنىٰ هـٰذا الخبر : أنَّ مَن لم يستحيِ . . دعاه ترك الحياء إلىٰ أن يعملَ ما يشاء ، لا يردعه عنه رادعٌ ، فليستحيِ المرءُ ؛ فإنَّ الحياء يردعُه) .

وسمعت مَن يحكي عن أبي بكر الرازيِّ من أصحاب أبي حنيفة : (أنَّ المعنىٰ فيه : إذا عُرِضت عليك أفعالُك التي هممت بفعلها فلم تستحيِ منها ؛ لحسنها وجمالها . . فاصنع ما شئت منها) فجعل الحياء حكَماً علىٰ أفعاله .

وكلا القولين حسن[١] ، والأوّلُ أشبهُ ؛ لأنَّ الكلام خرج من النبيِّ صلى الله عليه وسلم مَخرجَ الذمِّ ، لا مَخرجَ الأمرِ .

لـٰكن قد جاء الحديث بما يضاهي القولَ الثاني ؛ وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « ما أحببتَ أن تسمعَهُ أُذناكَ . . فأْتِهِ ، وما كرهْتَ أن تسمعَهُ أُذناكَ . . فاجتنِبْهُ »[٢] .

ويجوز أن يُحمَل هـٰذا الحديث على المعنى الصريح فيه ، ويكونَ التأويلُ الأول في الحديث المتقدِّم أصحَّ ؛ إذ ليس يلزم أن تكون أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم كلُّها متّفقةَ المعاني ، بل اختلافُ معانيها أدخلُ في الحكمة ، وأبلغُ في الفصاحة إذا لم يضادَّ بعضُها بعضاً .

واعلم : أنَّ الحياء في الإنسان قد يكون من ثلاثة أوجه : أحدها : حياؤه من الله تعالىٰ ، والثاني : حياؤه من الناس ، والثالث : حياؤه من نفسه .

فأمّا حياؤه من الله تعالىٰ . . فيكون بامتثال أوامره ، والكفِّ عن زواجره .

وروى ابن مسعود رضي الله عنه أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال :

---

(١) فمبنى الأول : حمل الأمر على التهديد ، ومبنى الثاني : حمله على الإباحة ، وكلاهما حسن من حيث المبنىٰ والمعنىٰ .

(٢) رواه البخاري في « الأدب المفرد » (٢٢٢) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (١٠٦١٨) عن سيدنا حرملة بن عبد الله رضي الله عنه .

« استَحْيُوا منَ اللهِ تعالىٰ حقَّ الحَياءِ » قيل : يا رسولَ اللهِ ؛ كيف نستحْيِي منَ اللهِ عزَّ وجلَّ حقَّ الحياءِ ؟ قال : « مَن حفِظَ الرأسَ وما حَوىٰ ، والبطنَ وما وعىٰ ، وتركَ زينةَ الحياةِ الدُّنيا ، وذكرَ الموتَ والبِلىٰ . . فقدِ استحيا منَ اللهِ حقَّ الحياءِ »[1] ، وهـٰذا الحديث من أبلغ الوصايا .

قال أقضى القضاة رحمه الله تعالىٰ : رأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم في المنام ذاتَ ليلة ، فقلت : يا رسولَ الله ؛ أوصِني ، فقال : « استحْيِ منَ اللهِ حقَّ الحياءِ » ، ثم قال : « تغيَّرَ النّاسُ » قلتُ : وكيفَ ذلك يا رسولَ الله ؟ قال : « كنتُ أنظرُ إلى الصبيِّ فأرىٰ في وجهه البِشرَ والحَياءَ ، وأنا أنظرُ إليه اليومَ فلا أرىٰ ذلك في وجهه !! » .

ثم تكلَّم بعد ذلك بوصايا وعِظات تصوَّرتُها ، وأذهلني السرورُ عن حفظها ، ووددتُ أنِّي لو حفظتها ، فلم يبدأ صلى الله عليه وسلم بشيءٍ قبل الوصية بالحياء من الله تعالىٰ ، وجعل ما سُلِبه الصبيُّ من البشر والحياء سبباً لتغيُّر الناس ، وخصَّ الصبيَّ ؛ لأن ما يأتيه بالطبع من غير تكلُّف .

فصلَّى الله عليه وسلَّم من هادٍ لأمته ، تابعَ إنذارها ، وقطع أعذارها ، وواصل تأديبها ، وحفظ تهذيبها ، وجعل لكل عصرٍ حظّاً من زواجره ، ونصيباً من أوامره ، أعان الله تعالىٰ علىٰ قبولها بالعمل ، وعلى استدامتها بالتوفيق !!

وقد رُوي أنَّ علقمة بن عُلاثة قال : يا رسولَ الله ؛ عِظْني ، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « استَحْيِ منَ اللهِ تعالى استحياءَكَ من ذي الهيبةِ من قومِكَ »[2] .

وهـٰذا النوع من الحياء يكون من قوّة الدِّين ، وصحّة اليقين ؛ ولذلك قال

---

(1) رواه الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٣٢٣) ، والترمذي (٢٤٥٨) ، وعطف (ما حوىٰ) على (الرأس) إشارة إلىٰ أن حفظ الرأس عبارة عن التنزه عن الشرك ؛ فلا يسجد إلا لله ، ولا يرفعه تكبراً ، والعطف على البطن إشارة إلىٰ حفظه عن الحرام ، والتحذير من أن يملأه من المباح .

(2) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٧٣٤٣) .

النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « **قِلّةُ الحَياءِ كُفرٌ** »[1] يعني : من الله تعالىٰ ؛ لما فيه من مخالفة أوامره .

وقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « **الحياءُ نِظامُ الإيمانِ ، فإذا انحلَّ نظامُ الشيءِ . . تبدَّدَ ما فيه وتفرّقَ** »[2] .

وأمّا حياؤه من الناس . . فيكون بكفِّ الأذىٰ ، وترك المجاهرة بالقبيح .

وقد رُوِي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **مِن تَقوى اللهِ تعالى اتقاءُ النّاسِ** » .

ورُوي أنَّ حذيفةَ بن اليمانِ أتى الجمعةَ ، فوجد الناسَ قد انصرفوا ، فتنكَّبَ الطريقَ عن الناس ، وقال : (**لا خيرَ فيمَن لا يستحِي من الناس**)[3] .

وقال بشار بن برد[4] : [من الخفيف]

ولقد أَصرِفُ الفؤادَ عن الشَّيـ ... ـءِ حَياءً وحُبُّهُ في السَّوادِ
أُمسِكُ النَّفسَ بالعَفافِ وأُمسِي ... ذاكراً في غَدٍ حديثَ الأعادي

وهٰذا النوع من الحياء قد يكون من كمال المروءة ، وحبِّ الثناء ؛ ولذلك قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « **مَن ألقىٰ جِلْبابَ الحَياءِ** . . فلا غِيبةَ له »[5] يعني والله تعالىٰ أعلم : **لقلّة مروءته ، وظهور شهوته** .

وروى الحسن ، عن أبي هريرة رضي الله تعالىٰ عنه قال : قال رسولُ الله

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٥٨٥٨) عن ابن المسيب رحمه الله تعالىٰ مرسلاً ، والحكيم الترمذي في « المنهيّات » (ص٩٦) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) أورده في « بهجة المجالس » (١/ ٥٩١) من قول سيدنا سليمان عليه السلام .

(٣) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (٥٤٦١) ؛ وفيه : أن حذيفة رضي الله عنه أمر من تأخّر بتنكُّب سَنَن الناس .

(٤) البيتان في « ديوانه » (٢/ ١٢٩) ؛ وفي (أ) : (حديث المعادِ) .

(٥) رواه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١٠/ ٢١٠) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٣/ ٢٠٤) عن سيدنا أنس رضي الله عنه ، والمعنىٰ : أن المتجاهر بالفواحش لا يحرم ذكره بما تجاهر به ؛ كي يحذره الناس .

صلى الله عليه وسلم : « **إنَّ مِن مُروءةِ الرجلِ** مَمْشاهُ ، ومَدخَلَهُ ، ومَخرَجَهُ ، ومَجلِسَهُ ، وإلفَهُ ، وجَليسَهُ »[١] .

وقال بعض الشعراء[٢] : [من الوافر]

وربَّ قَبيحةٍ ما حالَ بيني *** وبينَ رُكوبِها إلا الحَياءُ
إذا رُزِقَ الفتىٰ وَجهاً وَقاحاً *** تقلَّبَ في الأمورِ كما يشاءُ

وقال آخر[٣] : [من الطويل]

إذا لم تصُنْ عِرضاً ولم تخشَ خالقاً *** وتستَحْيِ مخلوقاً فما شئتَ فاصنَعِ

وأمّا حياؤه من نفسه . . فيكون بالعفّة وصيانة الخلوات .

وقد قال بعض الحكماء : (**ليكن استحياؤك من نفسك** أكثرَ من استحيائك من غيرك)[٤] .

وقال بعض الأدباء : (**مَن عمل في السرِّ عملاً** يستحيي منه في العلانية . . **فليس لنفسه عنده قدرٌ**)[٥] .

ودعا قومٌ رجلاً كان يألفُ عشرتهم ، فلم يُجبهم ، وقال : (**إنِّي دخلت البارحةَ في الأربعين ، وأنا أستحيي من سنِّي**)[٦] .

وقال بعض الشعراء[٧] : [من الطويل]

فسِرِّي كإعلاني وتلكَ خَليقتي *** وظُلمةُ ليلي مثلُ ضَوءِ نَهارِيا

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٦١٠٤) ، وابن المبارك في « الزهد » (٩٨٨) عن سيدنا أبي الدرداء رضي الله عنه موقوفاً ، والمعنىٰ : تظهر مروءته في كلٍّ من ذلك .
(٢) البيتان لعلي بن الجهم في « ديوانه » (ص٥٧) .
(٣) أورد البيت في « روضة العقلاء » (١/٢٦٨) ، و« بهجة المجالس » (١/٥٩٣) لأبي دُلَف العِجْليّ .
(٤) أورده ابن أبي أصيبعة في « عيون الأنباء في طبقات الأطباء » (ص ٦٦) .
(٥) رواه الدارقطني في « المؤتلف والمختلف » (٢/١٠٠٠) من قول ذي النون المصريّ رحمه الله تعالىٰ .
(٦) أورده ابن المعتز في « البديع » (ص١٥) .
(٧) أورد البيت ابن المعتز في « البديع » (ص٧٥) لرافع بن هُريم اليربوعيّ .

وهٰذا النوع من الحياء قد يكون من فضيلة النفس ، وحسن السريرة .

فمتىٰ كمل حياءُ الإنسان من وجوهه الثلاثة . . **فقد كملت فيه أسبابُ الخير** ، وانتفت عنه أسبابُ الشرِّ ، وصار بالفضل مشهوراً ، وبالجميل مذكوراً .

وقال بعض الشعراء(١) : [من الطويل]

وإنِّي ليثنيني عنِ الجَهلِ والخَنا ... وعن شتمِ ذي القُربىٰ خلائقُ أربَعُ
حيـاءٌ وإسـلامٌ وتقـوىٰ وأنَّنـي ... كـريـمٌ ومثلـي مَـن يضـرُّ وينفَـعُ

وإن أخلَّ بأحد وجوه الحياء . . لحِقَه من النقص بإخلاله بقدر ما كان يلحقه من الفضل بكماله .

وقد قال الرِّياشيُّ : يقال : إنَّ أبا بكر الصدِّيق رضي الله تعالىٰ عنه كان يتمثَّل بهٰذا الشعر(٢) : [من البسيط]

إنِّي سأستُرُ ما ذو العقلِ ساتِرُهُ ... مِن حـاجةٍ وأُمِيتُ السِّرَّ كِتمـانـا
وحاجةٍ دونَ أُخرىٰ قد سنحْتُ لها ... جعَلْتُهـا للتـي أخفَيـتُ عُنْـوانـا
إنـي كـأنـي أرىٰ مَـن لا حَيـاءَ لَـهُ ... ولا أمـانـةَ وَسْطَ النـاسِ عُـرْيـانـا

---

(١) البيتان في « ديوان أبي الأسود الدؤلي » (ص١١٨) ، و« ديوان محمد بن حازم الباهليّ » (ص٧٢ـ البقاعي) .

(٢) أورد الأبيات في « الزهرة » (١/ ٤١٤) ، و« شرح ديوان الحماسة » للتبريزيّ (٣/ ٣٠٤) لسَوّار بن المُضرَّب .